

الموت من منظور الإمام الحسين (عليه السلام)

يتمتع الكائن الإنساني بعناصر قوة تمنحه الثقة بالنفس والنشاط والفاعلية والقدرة على العمل والإنجاز في الحياة، وفي المقابل لديه عناصر ضعف لا يقوى على مقاومتها، ولا يتمكن من التغلب عليها، كالمرض المزمن والشيخوخة والموت، وأعظمها الموت الذي هو حقيقة حتمية، فقدر الإنسان أن يموت كما قال تعالى: ﴿كُلُّ سُوءِ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [11].

إن ما يعجز الإنسان عن التغلب عليه يجعله يشعر بالضعف والحاجة إلى الله سبحانه وتعالى، لأنه مصدر القوة والقدرة غير المتناهية، ففي حالات الإحساس بالضعف الإنساني كالمرض المزمن أو الخوف من الموت أو انعدام القدرة على مواجهة المخاطر يلجأ المرء إلى الله حتى يخلصه مما فيه، كما أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَّيْنَهُمْ فِي الْوَادِيِّ طَائِفَةً لَّيْسَ فِيكُمْ مَرْجٍ وَمِنْ أَلْفٍ بِهَذَا جَاءَتْهُمْ رِيحٌ عاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا إِلَى اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ لَنَنْزِلَنَّهُمْ مِنْ سَحَابٍ مُمِيزٍ﴾ [12]. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [13].

وقد أشار الإمام الحسين عليه السلام إلى عوامل الضعف عند الإنسان، وهي منبهات يجب أن تمنعه عن التبخر والغرور بقوله: «لَوْ لَا ثَلَاثَةٌ مَا وَصَّعَ ابْنُ آدَمَ رَأْسَهُ لَشَيْءٍ: الْفَقْرُ، وَالْمَرَضُ، وَالْمَوْتُ» [4]. فهذه منبهات شديدة التنبيه، ولا يمكن للإنسان أن يفرّ منها، فقد يكون غنياً ويفتقر لسبب خارج عن قدرته كحدوث حريق يلتهم كل ماله وممتلكاته في لحظات قصيرة، وقد يكون متمتعاً بالصحة فيمرض مرضاً مزمناً لا علاج له، وقد يكون في أوج قوته فيباغته الموت فجأة ليرحل عن الدنيا وهو في عنفوان شبابه وقوته وحيويته.

وعندما يغفل المرء عن حقيقة نفسه، ويستدرجه الله من حيث لا يعلم، ويغدق عليه بالصحة والعافية والنعمة الكثيرة ليمتحنه، ولكنه عندما يفشل في الامتحان يصاب بمرض الغرور والتكبر والتبخر، فلا تحمله الأرض على سعتها، ويتصور أنه أقوى من أي شيء، وكأنه يستطيع أن يخرق الأرض بنفسه أو يبلغ الجبال طولا،

وكما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ
الْجِبَالَ طُولًا ﴾ وقد يصل به الطغيان إلى مرحلة ادعاء الألوهية والربوبية، كما اغترّ فرعون
بنفسه، وادعى ذلك ﴿ فَقَالَ أَزَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ [51] ﴾ وعندها عاقبه ﴿ عِقَابًا شَدِيدًا لِّيَكُونَ
عِبْرَةً لِّغَيْرِهِ ﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً
لِّمَن يَخْشَىٰ [61].

لا تغفلوا عن الموت

على الإنسان العاقل ألا يغفل عن الموت، وأن يتأمل في حقيقة نفسه، ويعرف قدره، ويتفكر في آخرته، فلا
يغتر بالدنيا، ولا يعجب بنفسه ويتبخر، فمهما كان المرء غنياً وقوياً فإنه لا يستطيع أن يقاوم
فيروس خطر في منتهى الصغر لا يرى بالعين المجردة إذا حلّ في جسمه، ولا يتمكن من هزيمته مهما ملك
من أموال وأولاد وعشيرة؛ ومهما كانت مكانة المرء في الدنيا فإنه أعجز من أن يتصدى للموت إذا طرق
بابه، وكما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي أَلْهُمَّوْتُ الْبَشَرِ كُلُّ مَن مِّنْهُ فَأَلِ رَّبُّهُ
مُؤَلَّاقيكُم [71] ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ لَكُم مَّا تَكُونُونَ يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ
فِي بُرُوجٍ مُّشْبِهَةِ سُدَّةِ [81].

وحتى لا يغفل الإنسان عن الموت، كان الإمام الحسين عليه السلام يذكر مصارع آبائه وأجداده الذين
رحلوا عنه، فقال: «يَا بْنَ آدَمَ! اذْكُرْ مَصَارِعَ آبَائِكَ وَأَبْنَائِكَ، كَيْفَ كَانُوا وَحَيْثُ حَلَّوْا،
وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ حَلَلْتَ مَحَلَّاهُمْ، وَصِرْتَ عِبْرَةً لِّلْمُعْتَبِرِ» [9].

وعنه عليه السلام قال: «يَا بْنَ آدَمَ! اذْكُرْ مَصْرَعَكَ، وَفِي قَبْرِكَ مَضْجَعَكَ، وَمَوْفِقَكَ بَيْنَ يَدَيْ
اللَّهِ، تَشْهَدُ جَوَارِحُكَ [101] عَلَيْكَ يَوْمَ تَزَلُّ فِيهِ الْأَقْدَامُ، وَتَبْلُغُ الْقُلُوبُ
الْحَنَاجِرَ، وَتَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، وَتَبْدُو السَّرَائِرُ، وَيُوضَعُ الْمِيزَانُ الْقِسْطَ»
[111].

وكانَ الحُسَيْنُ ^(عليه السلام) إِذْ أَى الْقُبُورِ قَالَ: «مَا أَحْسَنَ طَوَاهِرَهَا، وَإِنَّ مَا الدُّوَاهِي [12] في بُطُونِهَا، فَاللَّهِ- اللّهُ- عِبَادَ اللّهِ! لَا تَشْتَغِلُوا بِالدُّنْيَا، فَإِنَّ الْقَبْرَ بَيْتُ الْعَمَلِ، فَاعْمَلُوا وَلَا تَغْفُلُوا» [13].

وحذر الإمام الحسين ^(عليه السلام) من الاغترار بالدنيا وما فيها من ملذات وملهيات، لما روي عنه ^(عليه السلام) أَنَّهُ قَالَ: «الْمَغْرُورُ مَنْ غَرَّتْهُ، وَالشَّقِيُّ مَنْ فَتَنَتْهُ، فَلَا تَغُرَّ زَكُّكُمْ هَذِهِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ زَهَّهَا تَقْطَعُ رَجَاءَ مَنْ رَكَنَ إِلَيْهَا، وَتُخَيِّبُ طَمَعَ مَنْ طَمَعَ فِيهَا» [14].

إن بعض الناس قد يستدرجهم ^(عليه السلام) من حيث لا يعلمون، فيصابون بالغرور والطغيان، وقد كان من دعاء الإمام الحسين ^(عليه السلام) «هَمْ- لَا تَسْتَدْرِجْنِي بِالْإِحْسَانِ، وَلَا تُؤَدِّبْنِي بِالْبَلَاءِ» [15].

وعلى الإنسان أن يتذكر دائماً أنه في هذه الدنيا كأنما هو في رحلة قصيرة، وأن أيامه معدودة تنقص باستمرار حتى يحين الأجل ويغادر إلى عالم الآخرة، روي عن الإمام الحسين ^(عليه السلام) «بَنَ آدَمَ، إِنَّ مَا أَنْتَ أَيَّامٌ، كُلَّ مَا مَضَى يَوْمٌ ذَهَبَ بَعْضُكَ» [16].

الموت سعادة

عندما يكون المرء مستعداً للموت، ومؤثراً الآخرة على الدنيا، فلا يخشى الموت ولا يهابه، وقد كان الإمام الحسين ^(عليه السلام) يشوق وجهه نوراً وهو مقبل على الموت، فقد روى عن الإمام زين العابدين ^(عليه السلام):- «لَمَّا اشْتَدَّ- الْأَمْرُ بِالْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ^(عليه السلام) مَنْ كَانَ مَعَهُ فَإِذَا هُوَ بِخِلَافِهِمْ؛ لِأَنَّ هُمْ كُلَّ مَا اشْتَدَّ- الْأَمْرُ تَغَيَّرَتِ أَلْوَانُهُمْ وَارْتَعَدَتِ فَرَائِصُهُمْ وَوَجَبَتِ قُلُوبُهُمْ؛ وَكَانَ الْحُسَيْنُ ^(عليه السلام) مِنْ مَعَهُ مِنْ خَمَائِصِهِ تُشْرِقُ أَلْوَانُهُمْ وَتَهْدَأُ جَوَارِحُهُمْ وَتَسْكُنُ نَفْسُهُمْ».

فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انظُرُوا، لَا يُبَالِي بِالْمَوْتِ!

فَقَالَ لَهُمُ الْحُسَيْنُ (عليه السلام): «صَبْرًا بَنِي الْكَرَامِ! فَمَا الْمَوْتُ إِلَّا قَنْطَرَةٌ تَعْبُرُ بِكُمْ عَنْ الْبُؤْسِ وَالصَّرَّاءِ إِلَى الْجَنَانِ الْوَاسِعَةِ وَالنَّعِيمِ الدَّائِمَةِ، فَأَيُّكُمْ يَكْرَهُهُ أَنْ يَنْتَقِلَ مِنْ سِجْنٍ إِلَى قَصْرِ؟» [171].

فالموت ليس أمراً عديمياً، بل هو أمر وجودي، وهو عبارة عن مرحلة انتقال من دار إلى دار، ومن عالم إلى عالم آخر، ومن عالم الشقاء والضراء إلى عالم السعادة والنعيم الدائم.

إن الإمام الحسين عليه السلام كان ينظر إلى الموت على أنه انتقال إلى الدار الآخرة حيث الخلود الأبدي والنعيم الدائم والسعادة الأبدية، فهو القائل «بَلَدِي لَا أَرَى الْمَوْتَ إِلَّا سَعَادَةً، وَالْحَيَاةَ مَعَ الظَّالِمِينَ إِلَّا بَرَمًا» [181] «[191] ، فالموت في نظره تحصيل للسعادة الدائمة.

وعلى المؤمن أن يتزود بالتقوى والأعمال الصالحة في حياته، حتى يكون مستعداً للقاء ربه، وكما قال تعالى: «وَتَزَوَّدُواْ فَلِمَنِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ الزَّادِ التَّقْوَىٰ» [201].

والموت بالنسبة للمؤمن أمر في غاية الراحة والاطمئنان، فقد روى عن الإمام الحسين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «الْمَوْتُ رَيْحَانَةُ الْمُؤْمِنِ» [211].